بتاريخ 27 جمادى الاول 1445
الاوامر

الجلسة 37

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمْ
الْحَمْدُ للّه رَبِّ الْعَالَمِينْ وَصَلَى الله عَلَىٰ سَيِّدَنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّاهِرِينْ

استعراضُ الأسفار لخطبةِ حيدرِ الكَرّار(عليه السلام)
لقد استعانَ و استشهد مُلّاصدرا الشيرازي على مقولته في الصفات الثبوتيّة الإلهية بنور كلام أمير المؤمنين عليه السلام، فقال:

و قد وقع في كلام مولانا و إمامنا مولى العارفين و إمام الموحدين(في أول خطبته عليه السلام) ما يدل على نفي زيادة الصفات لله تعالى بأبلغ وجه و آكده حيث قال في خطبة من خطبه المشهورة:

1. أوّل الدين معرفتُه.

2. و كمال معرفته التصديق به.

3. و كمال التصديق به توحيده.

4. و كمال توحيده الإخلاص له.

5. و كمال الإخلاص له نفي الصفات عنه لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف و شهادة كل موصوف أنه غير الصفة ـ فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه و من قرنه فقد ثناه و من ثناه فقد جزأه و من جزأه فقد جهله و من جهله فقد أشار إليه و من أشار إليه فقد حده و من حده فقد عده و من قال فيم فقد ضمنه و من قال على م فقد أخلى منه انتهى كلامه المقدس على نبينا و عليه و آله السلام و الإكرام.

و هذا الكلام الشريف مع وِجازته (و خلاصتِه) متضمّنٌ لأكثرِ المسائل الإلهية ببراهينها ـ و لنُشِر إلى نبذٍ من بيان أسراره و أُنموذجٍ من كنوز أنواره.[1]

تشريحُ الأسفار لخُطبةِ حيدرِ الكرّار(عليه السلام)
قوله عليه السلام: أوّل الدين معرفته: إشارة إلى أن معرفة الله تعالى و لو بوجه ابتداء الإيمان و اليقين فإن ما لم يتصور شيء لا يمكن التصديق بوجوده و لهذا قيل مطلب ما الشارحة مقدم على مطلب هل كتقدم البسيط على المركب.[2]

و تحريراً أوسع: إن معنى الأوّليّة في الدين:

1. إمّا الأوّليّة الابتدائيّة أي إن شروع الدّين يتحقّق بواسطةِ المعرفة، و قد اختار الأسفارُ هذا المعنى.

2. و إمّا الأوّليّة بمعنى الأساس و العمود، و هو الظاهر من الخطبة.

بينما بعضُ الشروح قد ألفَقَ كلا المَعنيَين معاً بحيث إن الدّين يَبتدأ و يتأسّس على المعرفة الإلهيّة.

و أما معنى الدّين فهو:

1. إما معناه الشهيرُ و المألوف، فيُصبحُ معنى الألف و اللام ـفي الدّينـ بمعنى العهد بحيث قد أرشدَنا عليه السلام إلى العناصرِ التي شكّلتِ الدِينَ بأسرِه و هي: الاعتقادات و الأحكام و الأخلاق، فأساسُ هذا الدّين القيّم هي المعرفة الإلهية.

2. وإما بمعنى الإطاعةِ، أي إنّ أوّلَ خطوةٍ للإطاعة بل أساسَها هي المعرفة الإلهيّة.

3. وإمّا بمعنى الجَزاء إذ قد ورد ضمن كتبِ اللغة و الرواية: كما تَدينُ تُدانُ، فالدّين القيّم بواسطة المعرفة الإلهيّة، يُثيبُ المرءَ على اعتقاده و يُجازيه أوفرَ الجزاء.

4. وإمّآ بمعنى الإيمان وفقاً لتفسير الأسفار، أي إن أساسَ الإيمانِ هي المعرِفةُ الإلهيّة ـلا بمعنى الابتداء و لا بمعنى الدين المألوفـ و هو الأدقّ معنىً إذ إن عمودَ الإيمان يتقوّم بالمعرفة فحسب.

و أما معنى المعرفة فهو:

1. إمّا بمعنى التصور و التصديق و العلم بواجب الوجود وفقاً لِقِيلةٍ.

2. و إما بمعنى إدارك البسائط فمن أدرك الحقائق البسيطة عُدّ عارفاً، خلافاً لكلمةِ العلم لأنها تَخُصُّ إدراكَ المركَّبات، و لهذا لا يُقال: علمتُ الله ـلأنه سبحانه عديمُ المادّةـ بل يقال: عرَفتُ اللهَ إذ المعرِفةُ تعُمّ الأمورَ البسيطةَ أيضاً ـإضافةً إلى المادّيات نظيرُ: الذين آتيناهم الكتابَ يعرِفونه كما يعرفون أبنائَهمـ إذن، فالتمايز ما بين مادّتيِ المعرفة و العلم هو نفس التّمايز ما بين مادّتيِ الفهم و الفقه.

1. و قيلَ: تُستعمَلَ المعرفةُ في الإدراك التصوريّ و يُستخدَمُ العلمُ في الإدراك التصديقيّ رغمَ أن هذه الاستعمالات تُضادّ صناعةَ المَنطق.

2. و قيلَ: العلم هو إدراك الشيئ أوّلاً ثم لو نسيَ و تعرّف عليه ثانيةً لسُمّيَ معرفةً لأنه قد عرَفَه جيّداً.

تنقيحُ السيّد الخوئيّ للفِقرَة المذكورة

إذا علمت ذلك فمعنى الأوّل في اللّغة ابتداءُ الشّيء، ثم قد يَكون له ثانٍ، و قد لا يكون، كما يقول: هذا أول ما اكتسبتُه، فقد يكسب بعده شيئا، و قد لا يكسِب، و استدلّ الزّجاج عليه بقوله تعالى حكايةً عن الكفار المنكرين للبعث، إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولى. فعبّر بالُاولى و ليس لهم غيرُها.

و الدّين الطاعة و الانقياد و العبادة و الاسلام، قال سبحانه: إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ. و تقول: دِنت دِيناً أى أسلمت و دان الرّجلُ إذا أطاع، قال الطريحي: الدّين وضع إلهي لاولي الألباب يتناول الاصول و الفروع.

و المعرفة: العلم و قيل: هي إدراك البسائط و الجزئيات، و العلم إدراك المركبات و الكليات، و من ثم يقال: عرفت اللّه، و لا يقال: علمته، و قيل هي عبارة عن الادراك التصوري، و العلم عبارة عن الادراك التّصديقي، و قيل: هي إدراك الشّيء ثانيا بعد توسّط نسيانه فلذلك يسمّى الحق سبحانه بالعالم، دون العارف، قيل: و هذا أشهر الأقوال في تعريف المعرفة.

أقول: و على هذا فاستعمال المعرفة في المقام (في الخطبة) نظرا الى سبق إدراك ذاته سبحانَه في عالم الذَّر، أو عند أخذ الميثاق من العقول المُجرَّدة، فافهم.

و التّوحيد: جعل الشّيء واحدا أى الحكم بوحدانيته، و قد يطلق على التّفريق بين شيئين بعد الاتصال، و على الاتيان بالفعل الواحد منفردا، و في الاصطلاح إثبات ذات اللّه بوحدانيّته، و وحدانيّته بمعنى أنّه لا ثاني له في الوجود، و بمعنى أنّه لا كثرة فيه مطلقا لا في عين الذّات، لانتفاء التركيب و الأجزاء، و لا في مرتبة الذّات لانتفاء زيادة الوجود، و لا بعد مرتبة الذّات لانتفاء زيادة الصّفات، و قد يقصد بها معنى أنّه لم يفته شيء من كماله، بل كلّ ما ينبغي له فهو له بالذّات و الفعل.

و الاخلاص: مصدر من أخلص الشّيء إذا جعله خالصا ممّا يشوبه، يقال: خلُص الماء اذا صفا من الكدر، و كلّ شيء صفا عن شوبه و خلص يسمّى خالصاً.[3]

و مُرافقةً مع السيد الخوئيّ في تفسير المعرفة، نقول بأن الله تعالى يُطلَق عليه العالم، دون العارف، ولهذا لم نجد في الأدعية كدعاء الجوشن، إطلاقُ عبارةِ: يا عارف، إلا في روايةٍ: و لا يَعرِفُک إلا اللهُ و أنا.[4].

فبالتّالي؛ إنّ العارف مَن يفهَمُ الواقع بدِقّة ـاللهم عرّفني نفسَک، أي بالتدقيق في مراتبِ وجودِک لا أصل الاعتقاد بوجود الربّ فإنه معتقدٌ بالله تعالىـ بخلاف العلم، فذلک نظيرُ الفارقِ ما بين الفقه و العلم؛ فإن الله عالم و ليس بفقيهٍ و لا بعارفٍ.

السيرُ مع اتّجاهِ الأسفار في شرح الخطبة

و قوله عليه السلام: و كمال معرفته التصديقُ به، و ذلك لأن من عرَف معنى واجبِ الوجود أنه الوجود المتأكّد الذي لا أتمَّ منه (أي واجب في وجوده و تامّ)، الذي يفتقر إليه الممكنات و الوجودات ـ الناقصة الذوات المصحوبة للنقائص و الأعدام و القصورات، فقد عرف أن لابد أن يكون في الوجود موجود واجبُ الوجود و إلا لم يوجد موجود في العالم أصلا ـ و اللازم باطل بالضرورة فكذا الملزوم فحقيقة الوجود إذا عرفت على وجه الكمال هو أن يكون معلوما بالعلم الحضوري الشهودي إذ قد ثبت فيما سبق أن الصورة العلميّة في الوجود لابدّ و أن يكون نفسَ حقيقته المعلومة بخلاف سائر الماهيات (فبين الوجود و الماهية تمايز، إذ الماهية لها وجودان ذهنياً وخارجياً كالإنسان، بينما حقيقةُ الوجود ليس له عنوان تصوريّ بل له عنوان تصديقيّ) فإنها قد يكون العلمُ بها غير وجودها العينيّ فلا يمكن أن يُعرفَ حقيقةُ كل وجود إلا بعينه الخارجي إذ ليس للوجود وجود ذهني كالماهيات الكلية (و هو فرق جوهري بين الوجود و الماهيّة فإنّ حقيقةَ الوجود ليس تصوريّاً بل هو متواجِد خارجاً و هو مما نُصدّق به، لا محضُ التصور) فكلّ من عرف حقيقة الوجود لأي موجود كان على وجه الكمال فلابدّ أن يعرف كنه ذاته ـ و كنه مقوماته إن كان له مقومات كالوجودات المجعولة و على أي تقدير لا بد أن يعرف ـ أن حقيقة الوجود و مبدأه و كماله موجودة لأن ما هو و هل هو في نفس الوجود أمر واحد بلا تغاير بينهما فمن عرف الوجود أي وجود كان بحقيقته عرف أنه موجود لأن ماهية الوجود إنيته كما أشرنا إليه فثبت أن كمال معرفته أي معرفة الوجود المتأكد الواجبي عين التصديق به.[5] (إذن، فواجب الوجوب موجودٌ تصديقاً فلولا واجبُ الوجود لما وُجدت شتّى الموجودات، و لهذا يُذعنُ المرء بوجود اللهـ لا محض التصورـ إذ هو علم حضوريّ و شهوديّ في النفس لأنه معلوم بالذات و لهذا يقول الإمام ما رأيتُ شيئاً إلا و رأيت الله قبله و معه و بعده...)

مقولة السيد الخوئيّ حول المعرفة

ربما صدرَت زلّةٌ من السيد الخوئيّ حيث يقول في هذا الحقل: ثمّ إنّ معرفتَه سبحانه قد تكون ناقصة، و قد تكون تامة، أمّا النّاقصة

فهو إدراك أنّ للعالم صانعا مدبّرا، و أمّا التّامة فقد أشار اليها بقوله: "و كمال معرفته التّصديق به" أى الاذعان بوجوده و وجوبه، لأنّ التّصور للشّىء إذا اشتدّ يصير إذعانا و حكماً بوجوده، إذ من ضرورة كونه صانع العالم و إلهَهُ أن يكون موجودا في نفسه فان ما لم يكن موجودا في نفسه، استحال أن يصدر عنه أثر موجود، فهذا الحكم اللّاحق هو كمال معرفته و تصوّره.

بينما التصوّر لا يَخضَعُ للشدّة و الضعف فلا مراتبَ له، فبالتالي إن تعابير الأسفار تعدّ أدقّ تعبيراً.

إكمال تفسيرِ الأسفار للخطبة

قوله عليه السلام: و كمال التصديق به توحيده، إشارة إلى البرهان على نفي تعدد الواجب من جهة النظر في نفس حقيقة الواجب الذي هو الوجود الصرف الذي لا يشوبه عموم و لا تشخص.....إذ لو فرض تعدد أفراد الواجب يلزم أن يكون الحقيقة الواحدة حقيقَتَينِ و هذا من المستحيلات التي لا يمكن تصوره فضلا عن تجويز وقوعه كما مر تحقيقه فثبت أن معرفة ذاته التي هي عين التصديق بوجوده شاهدة على فردانيته ـو وحدانيته كما قال تعالى شَهِدَ اَللّٰهُ أَنَّهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ فذاته شاهدة على وحدانيته (لا الشهادة المُصطلَحةِ لدى البشر بل إنّ وجوب ذاته هو الشاهد وفقاً لتعبير الدعاء التالي: يا من دلّ على ذاته بذاته)ـو أما وجه عطف قوله وَ اَلْمَلاٰئِكَةُ وَ أُولُوا اَلْعِلْمِ على كلمة الله الدال على شهادتهم أيضا على وحدانيته فبيانه كما مرت الإشارة إليه من أن وجود كل موجود سواه متقوم بوجوده تعالى بحيث لا يمكن معرفة شيء من هذه الوجودات بكماله ـ إلا بحضور هويته و شهوده و هو مستلزم لحضور ما يتقوم به أعني الوجود الحق بقدر ما يمكن حضور المفيض للمفاض عليه و قد علمت أن حقيقة الحق شاهدة على توحيده فكذلك وجود غيره.

و قوله عليه السلام: و كمال توحيده الإخلاص له، يعني الزوائد و الثواني إذ لو كان في الوجود غيره سواء كان صفة أو شيئا آخر لم يكن بسيطا حقيقيا لما مر سابقا أن بسيط الحقيقة لا يسلب عن ذاته ما هو كمال وجودي إلا النقائص و الأعدام إذ جهة سلب الوجود غير جهة ثبوت الوجود فلو سلبت عن ذاته حقيقةٌ وجوديةٌ يلزم التركيب في ذاته مع أنه بسيط الذات و هذا خلف.[6]

إذن فالمراد من الإخلاص ليس الخلوص في مقام العمل فحسب كما قيل، بل إن أمثال هذه العبائر تسعى لإخلاص مُعتقدِ الإنسان أيضاً، و لهذا قد فسّره السيد الخوئيّ بأسلوب آخر، قائلاً:

و كمال توحيده الاخلاص له، أى جعله خالصا عن النّقايص أى سلب النّقايص عنه ككونه جسما أو عرضا أو نحوهما ممّا هو من صفات النّقص، هذا، و قيل: إن المراد بالاخلاص إخلاص العمل له، و على هذا فاللّام للتّعليل قال سبحانه:وَ ما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ.[7]

---

[1] الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، قم ـ ايران، مكتبة المصطفوي، جلد: ۶، صفحه: ۱۳۵

[2] الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، قم ـ ايران، مكتبة المصطفوي، جلد: ۶، صفحه: ۱۳۶

[3] منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة (خوئى)، ج1، ص: 318

[4] و تشييداً لمقالة الأستاذ نُعلّل ذلک بأن سبب هذا التعبير ربما لأجل قرينة الضمير المنفصل فلا يقال: علمتُکَ، بل لا من القبيح فصلاحةً أن يقول: قد علِمَکَ الله و أنا، و لهذا إن أمثال هذه العبائر تعدّ مجازيّةً.

[5] الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، قم ـ ايران، مكتبة المصطفوي، جلد: ۶، صفحه: ۱۳۸

[6] الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، قم ـ ايران، مكتبة المصطفوي، جلد: ۶، صفحه: ۱۴۰

[7] منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة (خوئى)، ج1، ص: 321